

أوغسطين - الغزالي

أبو العلاء - دانتة

للدكتور جواد علي



بالرغم من اختلاف عصرى كل من المفكرين الكبيرين «أوريليوس أوغسطين» قديس المسيحية، و«الغزالي» حجة الإسلام وزين الدين؛ فإن بين الرجلين تشابهاً يكاد يكون عجيباً. تشابهاً في الحياة الخاصة، وتشابهاً في الحياة العامة وفي التفكير والإبداع، حتى في الشخصية تكاد تلامس روحاً واحدة في جسمين مختلفين. عاش أحدهما وهو القديس «أوغسطين» في شمال أفريقيا بين سنة ٣٥٤ وسنة ٤٣٠ الميلاديتين. وعاش الثاني في بلاد الشرق الأدنى بين سنة ١٠٥٨ وسنة ١١١١ للميلاديتين. أيضاً وبين الرجلين كما ترى عدة مئات من السنين

انتقل «أوغسطين» من حياة الشك إلى حياة اليقين، وانتقل حجة الإسلام «الغزالي» من عالم الشك إلى عالم اليقين كذلك، وكان القديس «أوغسطين» في آخر حياته صوفياً ناسكاً، وكان «الغزالي» في رأس قاعة متصوفى المسلمين. وقد درس «أوغسطين» الفلسفة والمنطق وعلوم اليونان ومعارف عصره؛ ولكنه لم يجد في كل هذه الأمور لذة ولا سعادة، بل وجد لذة في القناعة والزهد والدين الحق، ووجد «الغزالي» نفس ذلك أيضاً

لم يتحصر وجه التشابه في طراز معيشة كل من الرجلين العظيمين ولا في أسلوب الدراسة واختيار الدروس فقط، بل ظهر ذلك حتى في طريقة إبراز المعلومات من عالم الفكر إلى عالم الوجود. ألف «أوغسطين» كتاباً مهماً سماه (مملكة الله) (١) De civitate dei ذاع خبره في جميع العالم المسيحي، وألف كتاباً آخر سماه (المقائد) Confessiones (٢). وألف «الغزالي» عدة كتب في مواضيع تكاد تكون نفس المواضيع

(١) راجع قاعة كتب إياه الكعبة Mign. 16 vol. Paris. 1835.

(٢) راجع Zept. A. S. Konfessionen. Tübingen. 1926.

التي عالجها القديس «أوغسطين»، ومن جملة كتبه كتاب (النقذ من الضلال)؛ ويكاد يكون هذا الكتاب نفس كتاب (المقائد) لأوغسطين (١) في مضمونه واصطلاحاته وأغراضه التي من أجلها وضع هذا الكتاب

وقد انتبه إلى هذا التشابه المستشرق فريك Frick الذي قارن بين الكتائين وإذا بينهما تشابه عظيم في الترتيب والأسلوب والفصول والأدلة، بل حتى في بعض العبارات يكاد يكون عجيباً. وقد بحث هذا المستشرق عن نقاط الاختلاف الكاشفة بين الكتائين أيضاً والعوامل التي أثرت في كل من الرجلين فجعلت من الإنسانين إنساناً واحداً اتفقا في كل شيء عدا الزمن والبيئة. وقد دل المستشرق بصورة خاصة على ناحية التصوف والزهد في حياة كل من الرجلين، وهي الناحية الحساسة التي أثرت على مضاجع كل منهما، ومضاجع كل من أوغسطين والغزالي واحد (٢)

وهذا التشابه غريب في بابه حقاً إذ لم يكن الغزالي يعرف اللاتينية حتى يقول إنه اطلع على مؤلفات أوغسطين، ولم يرد في الرواية أيضاً أن أحداً من علماء المسلمين أو المترجمين كان قد ترجم كتاباً من كتب هذا القديس إلى العربية حتى يقول إن الغزالي اطلع على كتب القديس واتبس منها - لم يقل بذلك أحد حتى المستشرقون إلى هذا اليوم

يحدثنا البيهقي في كتابه تاريخ حكماء الإسلام (٣) أن الغزالي كان كثيراً ما يورد كلام العالم الاسكندري الشهير يحيى النحوي (٤) لاسيما في كتابه تهافت الفلاسفة حيث يقول البيهقي: «وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام رحمه الله في تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوي» ويذكر الشهر زوري في كتابه «زهوة الأرواح» (٥) أن الغزالي أخذ ما أورده في التهافت من كتب

(١) راجع Plessner, Hand. der. Islam Literatur. P. 282

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٢

(٣) خلا عن كتاب تلويح الفلاسفة في الإسلام لمؤلفه دى بور وترجمة محمد عبد الهادي أبو ريفة في تحاليفه على الكتاب وذكر أن الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٦٦٦ ص ١٧

(٤) يحيى النحوي من الكتاب الذين أئروا على المسلمين كثيراً وقد تعرف علي المقائد الغربي عمرو بن العاص وله حديث عن مكتبة الاسكندرية راجع الفهرست لابن النديم ص ٢٥٦

(٥) مقول من نفس المصدر ص ٢٠٩ والكتاب مصور على ما يقوله

أبو ريفة بمكتبة الجامعة. ص ١٨٢ - ١٨٣

ما بين « الكوميديا الإلهية » للشاعر الإيطالي دانت الشهير Dante alighieri « ١٢٦٦ - ١٣٢١ م » وما بين بعض القصص الإسلامية من الاتصال مثل قصة الإسراء^(١) . وقالوا إن دخول هذه العناصر إلى الكوميديا الدينية كان إما عن طريق مباشر وإما عن طريق الأساطير الأوربية التي سبق عهدها عهد الكوميديا الإلهية^(٢) . وتظهر هذه الروح الإسلامية في كثير من مواضع الكوميديا . وقد أيد بحث بعض المستشرقين أمثال ستوك هوركروني Snouck Hûngronje وإيتالو بيتري Italo Pimymyi هذا الرأي . وقد كتب العالم الشهير Miguel asin Palacios عن هذا الموضوع كتاباً خاصاً حلل فيه الكوميديا تحليلاً دقيقاً مظهراً أثر القصة العربية فيه^(٣)

وقال آخرون إن هذا التشابه أمر واقعي ؛ ولكنه لا يعود إلى مصدر عربي أصلاً بل يعود سببه إلى التقارب الكائن فيما بين العقليتين الرومانية والعربية^(٤) . ينأى عن إسناد أن رسالة الغفران للشاعر المتشائم أبي العلاء المعري ، وهو شاعر فيلسوف يوافق تفكيره التفكير الغربي أثر لا ينكر على كوميديا دانت هذه^(٥) . وهذا رأي ذهب إليه مستشرقون آخرون وقد تعودنا سماعه ، ولكنه يحتاج إلى بحث على دقيق لنرى وجه التشابه ، وسبب هذا التقارب في الأفكار

وعلى كل فهنا مثالان نسوقهما للقارى من أمثلة كثيرة ، ليرى إلى أى مدى يصل التشابه الفكرى بين الناس أحياناً وهو موضوع مهم أكثر ما يسقط فيه المستشرقون . يحتاج إلى درس عميق ومقارنة بين العقليات البشرية ، وخصوصاً فيما يطلق عليه « الأفكار البشرية العامة » وهي الأفكار التي تخطر على بال كل أحد وتعم على فكر كل إنسان .

موراد هـ

يحيى النحوى وقد اشتهر يحيى النحوى هذا برده على الفيلسوف برقليس Proklos (٤١٠ - ٤٨٥ م) رئيس المدرسة الأفلاطونية الحديثة في أثينا وصاحب كتاب « مبادئ تعاليم اللاهوت » ، وكتاب شرح محاورات أفلاطون في إبطال نظرية قدم العالم^(١) . هل يستطيع القارى استنتاج شيء عن هذه الرواية ؟ والظاهر منها أن الغزالي كان قد اطلع على كتب الفيلسوف يحيى النحوى وكتب هذا الأفلاطونى المتفلسف كما يقول ابن القفطى كثيرة^(٢) تعالج مواضيع فلسفية متنوعة وتعالج مواضيع تخص الكنيسة والعقيدة وهو أحد رجالها فهل توصل الغزالي إلى آراء أوغسطين عرضاً بواسطة كتب يحيى النحوى ؟ ولكن هل كانت آراء يحيى أو يوحنا النحوى^(٣) هذا مستمدة من منبع آخر هو أوغسطين بالنقل دراية أو رواية أو بتشابه الفكرة وتوافق العقيدة فانتقلت هذه عرضاً أو دراية إلى الإمام الغزالي بالنقل أو بطريقة الاطلاع ؟ لا أدري . وعلى كل فهناك مشاكل علمية كثيرة لا يمكن للمؤرخ أن يجيب عنها أجوبة قاطمة أبداً .

وخلاصة ما يمكن قوله هو أن بين الحجتين تشابهاً عظيماً جداً يكاد يكون عيبراً ؛ وأن هذا التشابه هو الذى جعل لكتب الغزالي رواجاً عظيماً بين فلاسفة أوروبا المدرسين المسيحيين وشهرة كبيرة أثرت على آراء بعض علماء اللاتين مثل توماس الأكويني وباسكال بطريقة مباشرة أو غير مباشرة^(٤) حتى يمكن أن نقول إنه كان حجة لدى المسيحيين كما كان حجة لدى المسلمين

أدرك علماء من المسلمين هذا القشابه بين آراء الغزالي وبين آراء يحيى النحوى فقالوا بأن الغزالي كان يقرر ما كان يحيى قد سبقه به . وأدرك بعض المستشرقين ما بين كتاب « المنقذ من الضلال » وما بين كتاب أوغسطين « العقائد » من الاتصال فقالوا قولاً لم يجزموا أنفسهم بما قالوه جزماً . وأدرك المستشرقون أيضاً

Miguel Asin. Islam And The Divine Comedy. (١)
London 1926.

(٢) راجع تراث الاسلام ج ١ ص ١٩

(٣) راجع 203 و S Platonisme.

(٤) راجع 138 f and 12, 1921. S Babinger. Der Islam

188-192 و 99, 1920. P Jakab Overmans, Stimmen der Zeit. Bd.

(٥) 459 and Hittl, Asia. Islam and the Divine comedy. and Hittl, 459

(١) راجع قلموس القلعة لشهد من ١٥٠ و أبو رينة ص ٢٠٩

(٢) راجع كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢٣

(٣) ويرف باسم Johannes Philoponus

(٤) وقد ترجمت بعض كتب الغزالي الرئيسية إلى اللاتينية في عام ١١٥٠

الميلادية راجع : 432 و Hittl و Theodor nöldeke في مجلة

Z. D. M G عدد ٤٠ سنة ١٨٩٤ ص ٤٥ - ٤٨